الجزء الأول المجلد السابع والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العراقي

جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ
آذار ١٩٨٦ م

ظاهرة تخطئة النحويين
للفصحاء والقراء

عبد الجبار علوان النايلة

كلية الآداب — جامعة الموصل

بسم الله الرحمن الرحيم . وبه نستعين

يلاحظ دارس النحو ظاهرة تتمثل في قيام قسم من النحويين البصريين أو الذين ساروا على مذهبهم وجاءوا بعدهم من نحاة الأقاليم الاخرى ، بتخطئة عرب فصحاء في لغتهم أو قراء مشهود لهم بالفضل والدراية ، قرأوا بقراءات صحيحة سنداً ورواية ، وذلك عن طريق قيامهم باخضاع اقوال اولئك العرب وقراءات اولئك القراء لاصول وضعت في البدء استناداً الى كلام العرب أنفسهم . وقد دعاني هذا الى دراسة هذه الظاهرة وتبيان اسبابها والدوافع التي دفعت النحاة الى سلوك هذه السبيل بهدف تنقيته من الشوائب . والله اسأل ان يوفقنا جميعاً لخدمة لغتنا العربية الشريفة .

من المتفق عليه بين دارسي النحو المحدثين انه لايجوز لأي نحوي يريد أن يضع نحو لغة ما أن يتدخل فيها ، أو يلزم أهلها باستعمال مالم تعتده ألسنتهم من تعبيرات الكلام واساليبه ، وما وظيفة النحوي إلا رصد كلام ابناء تلك اللغة وتسجيل مايدور على السنتهم من كلمات وعبارات ووصفها ، ثم وضع قواعدها بعد استقراء تام للغة واستقصاء عميق لها ، فما القواعد النحوية الا مرآة تعكس خصائص اللغة واساليبها وعباراتها ، وقد وضع النحو العربي في أول الأمر خدمة للغة العربية وحفظاً لها من الاختلال ، بعد ان ظهر اللحن وفشا ووقع الزيغ في كلام العرب ، ثم كثر اللحن حتى قيل إنه وقع

في تلاوة القرآن الكريم ، كتاب العرب الاول ودستورهم ومعتمدهم في امور الدين والدنيا، وذلك بسبب اختلاطهم بالأعاجم بعد الفتوحات العربية الاسلامية في المدن التي انشئت بُعَيْدَ الفتح كالبصرة – مثلاً – فقد كانت غاية واضعي النحو الأولين حفظ اللغة العربية وصيانتهـا ، فوضعوا النحو وسيلة لحفظ الكلام العربي من اللحن والخطأ . غير ان هـذا العلم الذي كان في البدء وسيلة لخدمة اللغة ، صار بمرور السنين وبتأثر النحاة الذين ظهروا في تاريخه بعلوم غريبة عن طبيعته بعيدة عن غايته عبئاً على اللغة ذلك ان قسماً من النحويين كانوا من المتكلمين الدارسين الفلسفة والمنطق أو من الاصوليين، فأثر ذلك في تفكيرهم وفي ظروف معالجتهم المسائل النحوية ، فابتعد النحو قليلاً عن الغاية التي وضع من أجلها ، اذ أصبح قيداً للغة يتحكم فيها وفي ألسنة متكلميها من العرب الخلص ، فيخطئ النحويون من يأتي بقول مخالفاً فيه أقيستهم وقواعدهم .

بعد ان قطع النحو مرحلة من تاريخه ظهر فيه اتجاهان لعلمائه ، اتجاه يؤثر السماع عن العرب ويكتفي به ويعده اصلاً مهماً من اصول النحو ، ويمثل هذا الاتجاه ابو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) ويونس بن حبيب (ت ١٨٢ هـ) ، فقد رأى أصحاب هذا الاتجاه أن ما وصل الى العلماء من نصوص لم تكن وافرة بحيث يمكنهم الاستناد اليها والحكم بالخطأ على ما جاء مخالفاً ، فلعلّ النص المخالف ممـا فات العلماء معرفته فجهلوه ، واتجـاه آخر يؤثر القياس والتعليل ويتعمق فيها ويخطئ من يخالفها ، ويمثله عبد الله ابن أبي اسحاق الحضرمي (ت ١١٧ هـ) ، وتلميذه عيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩ هـ) . وبمرور الزمن ساد مذهب القياسيين المعللين ؛ وذلك بظهور الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ) ، فقد كان الخليل قيّاساً يجيد القياس ويمد اطنابه ، وفيه يقول ابو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ) : « كان،

سيد قومه ، وكاشف قناع القياس في علمه » (١) ، فقد استنبط من علم النحو مالم يسبق اليه ، فقد كان غاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس (٢) وهكذا جعل نحاة البصرة ومن تأثّر بمذهبهم النحوي للقياس شأناً كبيراً – مقتدين بالخليل – في الأحكام المتعلقة بأمور اللغة . وها هو ذا ابو علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ) يقول : « لأن أخطئ في خمسين مسألة مما بابه الرواية ، أحب إليّ من أن اخطئ في مسألة واحدة قياسية » (٣) ، ووجدنا من النحويين من يقول : (٤) « اذا بطل أن يكون النحو رواية ونقلاً وجب ان يكون قياساً وعقلاً » .

ولست ممن يدعو الى إلغاء القياس جملة ، لأن القياس وسيلة من وسائل نحو اللغة وتطورها اذ كيف يتسنى لنا أن نسمع كل كلمة قالتها العرب ؟ « فما قيس على كلام العرب – كما يقول ابو عثمان المازني (ت ٢٤٩ هـ) – فهو من كلامهم » (٥) ، لأنا لم نسمع – كما يقول أبو القاسم الزجاجي (ت /٣٣٧ هـ) – نحن ولا غيرنا كل كلامها منها لفظاً ، وانما سمعنا بعضاً فقسنا عليه نظيره . مثال ذلك أنّا لما سمعنا قام زيد فهو قائم ، وركب فهو راكب عرفنا اسم الفاعل فقلنا ذهب فهو ذاهب . . . » . لكنّ الإغراق في القياس ، والقياس على ما لم يسمع البتة ، والإفراط في طلب العلّة القياسية (٦) هو المضر باللغة ، وهو الذي قام به النحويون البصريون وبذلك أهملوا

---

(١) ابو الفتح بن جني ، الخصائص ٣٦١/١ .
(٢) ابن النديم ، الفهرست ص ٧٠ .
(٣) ياقوت الحموي ، معجم الادباء ٢٥٤/٧ .
(٤) هو ابو البركات الانباري في (لمع الادلة) ص ٩٩ .
(٥) جلال الدين السيوطي ، المزهر ١١٧/١ .
(٦) العلة القياسية : أن يقال لمن قال : لم نصبت زيداً بـ (انّ) في قوله : ان زيداً قائم ؟ ولمَ وجب أن تنصب الاسم ؟ فما الجواب في ذلك ان يقول : لأنها واخواتها ضارعت الفعل المتعدي الى مفعول فحملت عليه فعملت =

أقوالاً فصيحة صدرت عن العرب ، لأنها لم تخضع للقياس ، وخطأوا أصحابها ، وربما حكوا أشياء لم تصدرعن العرب طرداً للقياس . قال سيبويه (ت ١٨٨ هـ) (٧) : « هذا باب استكرهه النحويون وهو قبيح ، فوضعوا الكلام فيه على غير ماوضعت العرب » . وقال مثل ذلك في « باب اضمار المفعولين اللذين تعدّى اليهما فعل الفاعل » (٨) . وقد رفض سيبويه قياس النحويين هذا لأن السماع وهو اصل اهم من القياس لايؤيده ، بدليل قوله : « وأما قول النحويين قد اعطاهوك واعطاهوني فانما هو شيء قاسوه لم تكلم به العرب ، فوضعوا الكلام في غير موضعه ، وقياس هذا لو تكلم به كان هيّناً » (٩) . وقال ابن خالويه (١٠) (ت ٣٧٠ هـ) : « النهار الذي هو ضد الليل العرب لاتجمعه وإنما جمعه النحويون قياساً لا سماعاً » ، وقد أوضح الطبرسي (١١) (ت ٥٤٨) هذا بقوله : « وانما جمعت الليلة ولم يجمع النهار ، لأن النهار بمنزلة المصدر كقوله : الضياء يقع على الكثير والقليل » . ومن ذلك أيضاً ماذكره ابن عقيل (ت ٧٦٩ هـ) بقوله : « ولم يسمع من لسان العرب حذف « كان » وتعويض « ما » عنها وابقاء اسمها وخبرها الا اذا كان اسمها ضمير مخاطب (اما انت برّاً فاقترب) كما مثّل به ابن مالك ، ولم يسمع مع ضمير المتكلّم ولامع الظاهر ، والقياس جوازها كما جاز مع المخاطب »(١٢) . أرأيت كيف اخذوا يقيسون من غير سماع ؟ مع

=
باعماله لما ضارعته ، فالمنصوب بها مشبه بالمفعول لفظاً ، والمرفوع بها مشبه بالفاعل لفظاً فهي تشبه من الأفعال ما قدم مفعوله على فاعله . الزجاجي ، الايضاح في علل النحوص ٦٤ .

(٧) ١ / ١٦٧ .
(٨) الكتاب ينظر ٣٨٣/١
(٩) الكتاب ٣٨٣/١ .
(١٠) اعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ٩٧ .
(١١) مجمع البيان في تفسير القرآن ٥٧/٢ .
(١٢) شرح ابن عقيل ٢٢٨/١ .

أن اللغة لاتخضع دائماً للقياس ، وقد اقرّ هذا ابن جني اذ قال : « ومعاذ الله أن ندّعي ان جميع اللغة تستدرك بالأدلة قياساً » (١٣) ، غير أن النحويين لم يروا ذلك فقياس العلة كان سبيلهم الى استيعاب مسائل اللغة واستقصائها ، ومن يقرأ « باب في امتناع العرب من الكلام بما يجوز في القياس » (١٤) ، يجد ابن جني قد أتى بأمثلة كثيرة مؤيداً وجهة نظره بأن العرب لاتسير دائماً في كلامها على وفق قياس النحويين الذي وضعوه للغة ، من ذلك مثلاً ماورد مطرداً في الاستعمال شاذاً عن القياس قول العرب : الحَوَكَةُ والخَوَنَةُ ، فهذا — كما يقول ابن جني — « من الشذوذ عن القياس على ماترى ولكنه في الاستعمال جارٍ على ألسنَة العرب الفصحاء ، ولكن لايقاس عليه ، فلا يقال على هذا في جمع قائم : قَوَمَة ، ولا في صائم : صَوَمَة » (١٥) . وقال ايضاً : « ومما رفضته العرب استعمالاً — وان كان مسوغاً قياساً — وذر ، وودع ، استغني عنها بـ (ترك) (١٦) ، ومن ذلك امتناعهم من استعمال استحوذ معتلاً وان كان القياس داعياً الى ذلك ومجوزاً له ، لكنّ العرب اجمعوا على التصحيح ، ليكون دليلاً على اصول ماغُيِّر من نحوه ، كاستقام واستعان فلم يقولوا استحاذ (١٧) ، وقال الفارابي اللغوي (١٨) (ت ٣٥٠ هـ) : « يقال : أَحْزَنه يَحْزُنُه ؛ قال تعالى : (ولا يَحْزُنك) (١٩) ، وهذا شاذ ، وكان القياس : يُحْزِنه ولم يسمع ، ويقال : أحمّه الله من الحمّى فهو محموم والقياس : مُحَمّ » .

---

(١٣) الخصائص ٢/٤٣ .
(١٤) ينظر الخصائص ١/٣٩١ — ٣٩٩ .
(١٥) الخصائص ١/١٢٣ .
(١٦) و (١٧) الخصائص ١/٣٩٢ و ٣٩٤ .
(١٨) المزهر ١/٢٣٠ .
(١٩) سورة آل عمران من الآية ١٧٦ .

ومما خالف القياس وسموه (شواذ الجمع) ماذكره سيبويه (٢٠) : « قالوا : اراهط في رَهَط ، فجمعوا : فَعَل على أفاعل ، والقياس يقتضي كونه جمع : أفْعُل ، نحو : أرهُط » . ومثل هذا كثير تجده مسطوراً في ثنايا الكتب النحوية واللغوية ، وفيما ذكرناه دليل واضح على ان اللغة لاتخضع دائماً للقياس .

غير أن فريقاً من النحويين كانوا لا يقرّون تطوّر اللغة ونظروا إلى أبنيتها ومفرداتها انها في حالة كمال تام ، فلم يدركوا ان ماخالف القياس وامتنع عن قبول التأويل ودعوه بـ (الشواذ) لم يكن الا أثراً من آثار التطوّر ، أو بقايا من لغة عفا رسمها واندثرت معالمها ، والذي لا يؤمن بتطور اللغة كان طبيعياً أن يقف متصلباً امام أساليب وتعبيرات تخالف قياسه واصوله ويحاول عدم قبولها وتخطئة أصحابها .

تخطيء النحويين طائفة من العرب

من امثلة ذلك مادعوه بـ (الجر على الجوار) . قال سيبويه (٢١) : « مما جرى نعتاً على غير وجه الكلام : هذا جحرُ ضبٍ خَرِبٍ ، فالوجه الرفع وهو كلام اكثر العرب وأفصحهم في القياس ، قال الخليل : لايقولون إلا : هذان جحرا ضب خربان ، من قبل أن الضبّ واحد والجحر جحران ، وانما يغلطون اذا كان الآخر بعدّة الأولى وكان مذكراً مثله أو مؤنثاً . وقال : هذه جحرةُ ضبابٍ خربةٍ ، لأن الضباب مؤنثة ولأن الجحرة مؤنثة والعدة واحدة فغلطوا ، وتبع النحويون الخليل وسيبويه في تخطيء العرب في تعبيرهم هذا ، قال ابو البركات الانباري (٢٢) (ت ٥٧٥ هـ) : « وقولهم :

---

(٢٠) الكتاب ١٩٩/٢ . (٢١) الكتاب ٢١٧/١ .

(٢٢) الانصاف في مسائل الخلاف ٦٢٥/٢ وانظر قولا مشابهاً لهذا قاله في اسرار العربية ص ١٣٤ .

« جحرُ ضبٍ خربٍ » محمول على الشذوذ الذي يقتصر فيه على السماع لقلّته ، ولايقاس عليه ، لأنّه ليس كل ما حكي عنهم [اي العرب] يقاس عليه » ، على أن ابن جني كان منصفاً فلم يذهب إلى تخطيء العرب ، وانما حاول تأويل النص لكي ينسجم مع القياس النحوي – والتأويل مركب وطيء يذلل النحويون به كل أمر صعب – : إذ قال : « فمما جاز خلاف الاجماع الواقع فيه منذ بدىء هذا العلم والى آخر هذا الوقت ، مارأيته أنا في قولهم : هذا حجرُ ضبٍ خرِبٍ . فهذا يتناوله آخر عن تالٍ ، وتالٍ عن ماضٍ على أنه غلط من العرب لايختلفون فيه . . . وأما أنا فعندي أن في القرآن مثل هذا الموضع نيّفاً على ألف موضع . وذلك أنه على حذف المضاف لاغير . فاذا حملته على هذا الذي هو حشو الكلام من القرآن والشعر ساغ وسلس ، وشاع وقبل ، وتلخيص هذا أن أصله :

هذا جحرُ ضبٍ خرِبٍ جُحْرُهُ ؛ فيجري (خرب) وصفاً على (ضب) وان كان في الحقيقة للجحر . . . ثم حذف الجحر المضاف إلى الهاء ، واقيمت الهاء مقامه فارتفعت ؛ لأن المضاف كان مرفوعاً ، فلما ارتفعت استتر الضمير المرفوع في نفس (خرب) فجرى وصفاً على ضب – وان كان الخراب للجحر لا للضب – على تقدير حذف المضاف . . . » (٢٣) .

ونسب سيبويه الغلط إلى العرب في غير موضع من كتابه ، وان ادّعى بعض المحدثين انه أراد بالغلط التوهم (٢٤) ، وهذا لايدفع ان سيبويه خطأهم صراحة . من ذلك مثلاً قوله (٢٥) :

---

(٢٣) الخصائص ١/١٩٢ – ١٩٣ .

(٢٤) هو محمد عبدالخالق عضيمة في فهارس كتاب سيبويه ص ٤٣ .

(٢٥) الكتاب ١/٢٩٠ .

« واعلم أن ناساً من العرب يغلطون فيقولون : إنّهم أجمعونَ ذاهبونَ وانك وزيدٌ ذاهبـــان » ، « وهـــو بذلك يقرر ان توكيـــد اسم إنّ والمعطوف عليه ينبغي أن يكونا جميعاً منصوبين لأنهما يتبعان منصوباً » (٢٦) ، غير ان العرب نطقت بخلاف ذلك . ومن ذلك ايضاً : « قوله ومن العرب من يقول : خمسة عشرك وهي لغة رديئة » (٢٧) ، وكذلك قال : « فأما قولهم (مصائب) فانه غلط منهم ، وذلك انهم توهموا أن مصيبة فعيلة وانما هي مفعلة » (٢٨) ، وقوله : « ومن العرب من يقول في ناب نويب فيجيء بالواو لأن هذه الألف مبدلة من الواو اكثر ، وهو غلط منهم » (٢٩) .

وقال الزمخشري (٣٠) (ت ٥٣٨ هـ) : « وقد حكى سيبويه عن قوم فصحاء : من ابنك بالفتح وحكى في : من الرجل بالكسر وهي قليلة خبيثة » ، ولست ادري كيف تكون لغتهم خبيثة وهم قوم فصحاء ؟ ! أما كان الأجدر أن يجعل كلامهم حجة ؟

ويظهر ان تخطيء العرب في لغتهم صار فيما بعد سهلاً على النحاة فيما اذا سمعوا شيئاً مخالفاً لأقيستهم وقواعدهم ، فقد عقد ابن جني في خصائصه (باباً في اغلاط العرب) (٣١) ، ولولا خوف الإطالة لذكرت امثلة مما أوردها هناك . وقال ابن خالويه في شرح الفصيح :

« إن الفَرّاء كان يجيز كسر النون في شَتّان تشبيهاً لهـــا بسيّان وهو خطأ بالإجماع . فان قيل : الفراء ثقة ولعلّه سمعه . فالجواب : ان كان الفَرّاء

---

(٢٦) المدارس النحوية ص ٨١ .
(٢٧) الكتاب ٢/٥١ .
(٢٨) الكتاب ٢/٣٦٧ .
(٢٩) الكتاب ٢/١٢٧ .
(٣٠) الزمخشري ، المفصل في علم العربية ص ٣٥٥ .
(٣١) ينظر الخصائص ٣/٢٧٣ ـ ٢٨٢ .

قاله قياساً فقد اخطأ القياس وان كان سمعه من عربي فان الغلط على ذلك العربي لأنه خالف سائر العرب وأتى بلغة غير مرغوب فيها » (٣٢) .

والحق ان جمهور الكوفيين وان لم يصدر عنهم قول بتخطىء العرب ، وكانوا يحترمون المسموع ويعدّلون أقيستهم وقواعدهم بمقتضاه ، إلا أن أبا زكرياء الفرّاء (ت ٢٠٧ هـ) قام بتخطىء العرب والقُرّاء لتأثره بالاصول البصرية كثيراً ، ومن اقواله : « وربما غلطت العرب في الحرف اذا ضارعه آخر من الهمز فيهمزون غير المهموز » (٣٣) . وهو يعني قولهم في منارة منائر وفي مصيبة مصائب وسيأتي تخطيئه للقُرّاء .

إن القواعد يجب أن تساير واقع اللغة وتستخرج من كلام أهلها ، لا أن نحاول إخفاء اللغة لقواعد وضعناها بأنفسنا وقياس اخترعناه ، ولكن النحاة حاولوا ذلك بكل طاقتهم فلم يفلحوا إذ اعترض سبيلهم مالم يسمعوه او لم يحسبوا له حساباً في قواعدهم ، قال المبرّد (ت ٢٨٥ هـ) : « واعلم أن من العرب من يقول : اللهِ لأفعلَنّ ، يريد الواو فيحذفها ، وليس هذا بجيّد في القياس ، ولا معروف باللغة ، ولا جائز عند كثير من النحويين وانما ذكرناه لأنه شيء مسموع » (٣٤) ، ومعنى قوله (مسموع) انه وارد عن العرب ، فعلام يهمل ؟ ألأنّه غير جيد في القياس ، ومتى كان القياس أهم من السماع ؟

إن للغة نظامها الذي تسير عليه ، ومنطقها الخاص بها ، فاللغة ظاهرة اجتماعية شأنها شأن أيّة ظاهرة في الوجود كالمأكل والملبس ونظام الحياة الاجتماعية ، ولهذا تخضع لظروف وعوامل معينة تتأثر بها ، كما أنها تتطو كما تتطور الكائنات الحية ؛ تولد وتنمو ثم تتوسع ، وتنشأ فيها كلمات

---

(٣٢) المزهر ٢/٥٠٤ .
(٣٣) معاني القرآن ١/٤٥٩ .
(٣٤) ابو العباس المبرد ، المقتضب ٢/٣٢٦ .

واستعمالات جديدة ، وتُهْجَر كلمات فتموت وتترك استعمالات واساليب ، كما يحدث في كلماتها تغيير وتحرير بالتدريج لا يفطن اليه الا على المدى الطويل ، وكان الواجب ألا يتسرع النحويون الى تخطئة من خالف القاعدة ، أو أتى بشيٍ خالف فيه الكثير الشائع ، بل يعللون كلام المخالف تعليلاً تاريخياً وصنعياً ، ويقتنعون بوصف الظواهر اللغوية آخذين تطوّر اللغة في تقديراتهم .

تخطيء النحويين للقراء

دفع البصريين ومن سار على مذهبهم من نحاة الاقاليم الاخرى تمسكهم بالقياس النحوي ورغبتهم الشديدة في السير باللغة على وفق قواعد ثابتة وسنن مستقيمة لاتحيد عنها ، الى تحكيمه في القراءات القرآنية أيضاً ؛ إذ اخضعوها لأقيستهم وقواعدهم ، فأخذوا منها ما يتفق وتلك الاصول والقواعد وجعلوا منها حجة ، ولو كانت معدودة في القراءات الشاذة (٣٥) ونبذوا منها مالا يتفق مع اصولهم ولو كانت قراءة سبعية ، فخطأوا قراءات لايرقى الشك الى صحتها رواية واداء ، قرأ بها قراء كبار ممن اشتهر بالضبط والاتقان والصـــدق والدراية كالقراء السبعة ، فخطأوا عدة قراءات (٣٦) لحمزة الزيات (ت ١٥٦ هـ) ، اذكر منها قراءته : (واتّقوا الله الذي تساءلونَ به والارحامَ) (٣٧) بجر الارحام عطفاً على الضمير المجرور بالباء ، حيث خالف ماقرروه من عدم جواز العطف على الضمير المجرور الا باعادة الجار ، وجوزوه في ضرورة الشعر .

---

(٣٥) ينظر ابو البركات الانباري، الانصاف في مسائل الخلاف ١٠٨/١ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٥٦٣/٢ ، ٦٥٣ حيث اعتمد البصريون على القراءات الشاذة في تدعيم اقيستهم ، ورد مذهب الكوفيين .

(٣٦) ينظر علي النوري الصفاقسي ، غيث النفع في القراءات السبع ص ١٨٥ ، والزمخشري ، الكشاف ٣٠٠/٢ .

(٣٧) سورة النساء من الآية ١ .

وهي قراءة لم ينفرد بها حمزة وحده فحسب بل قرأ بها جمع من الصحابة والتابعين كعبدالله بن مسعود وعبدالله بن عباس وابراهيم النخعي والأعمش والحسن البصري وقتادة السدوسي ومجاهد (٣٨) . وعلى الرغم من ذلك ضعّفها اكثر النحويين وخطأوا قارئها (٣٩) . اما المبرد فقد حرّم القراءة بها (٤٠) .

وكان الحق يقضي على النحويين بأن لايتزمتوا فيقفوا متصلبين ازاء القراءات محكمين قياسهم فيها ، بل يعدّلوا شيئاً من اصولهم ومن أقيستهم الضيّقة لكي تستوعب تلك القراءات المتصلة اتصالاً وثيقاً بلهجات العرب والمنقولة بسند صحيح عن رسول الله عليه الصلاة والسلام . وبذلك يكون نحوهم اكثر تمثيلاً لواقع اللغة .

وخطأ النحويون نافع بن ابي نعيم (١٩٩ هـ) مقرئ المدينة المنوّرة في قراءته (معايش) بهمز الياء (٤١) ، حيث قرأ قوله تعالى : (ولقد مكنّاكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش) (٤٢) . قال المازني (٤٣) : « فأما قراءة من قرأ من اهل المدينة (معايش) فهمز فانه غلط ، وانما هذه القراءة منسوبة الى نافع ، ولم يكن له علم بالعربية » ، وتبعه المبرد فقال (٤٤) : « من قرأ (معايش) فهمز فانه غلط ، وانما هذه القراءة منسوبة الى نافع ،

---

(٣٨) تفسير الرازي ١٩٣/٣ ، شرح الأشموني ٤٣٠/٢ .
(٣٩) ينظر ابن يعيش ، شرح المفصل ٧٨/٣ ، والحريري ، درة الغواص ص ٣٧ ، وتفسير الطبري ٥١٩/٧ ، وتفسير القرطبي ٧/٥ .
(٤٠) شرح المفصل ٧٨/٣ وينظر المبرد ، الكامل ٣٩/٣ .
(٤١) غيث النفع في القراءات السبع ص ١٣١ .
(٤٢) سورة الأعراف من الآية ١٠ .
(٤٣) المنصف : شرح تصريف المازني ٣٠٧/١ .
(٤٤) المقتضب ١٢٣/١ .

ولم يكن له علم بالعربية » . مع ان نافعاً لم ينفرد بهذه القراءة ، وانما قرأ بها « الأعرج وزيد بن علي والأعمش وخارجة عن نافع ، وابن عامر ، وهؤلاء ثقات لايقرأون الا بما سمعوا » (٤٥) ، وهم من الفصاحة والضبط والثقة والاتقان والحفظ بمكان .

وكذلك لحّن النحويون عبدالله بن عامر اليحصبي (ت ١١٨ هـ) في قراءته : (وكذلك زُيِّنَ لكثير من المشركين قتلُ اولادَهم شركائِهم) (٤٦) بنصب دال (اولادهم) وخفض همزة (شركائهم) واضافة (قتل) وهو فاعل في المعنى (٤٧) . فقد خالف في قراءته المستندة الى السند المتين ، والرواية الصحيحة ماقرره النحويون من عدم جواز الفصل بين المضاف والمضاف اليه إلا في ضرورة الشعر ، حيث جوّزوا الفصل بالظرف وحرف الجر (٤٨) . قال ابو علي الفارسي (٤٩) : « هذا قبيح في الاستعمال ، ولو عدل عنها [يعني ابن عامر] كان اولى ، لأنهم لم يجيزوا الفصلَ بين المضاف والمضاف اليه بالظرف في الكلام مع اتساعهم في الظرف ؛ وانّما أجازوه في الشعر » . وتبعه تلميذه ابن جني حيث جعل الفصل بالظرف وحرف الجر قبيحاً وان كثر في الشعر عند الضرورة (٥٠) .

ومضى النحويون يخطئون هذا القارئ الكبير في قراءته السبعية عبر

---

(٤٥) ابو حيان ، البحر المحيط ٤/٢٧١ .
(٤٦) سورة الانعام من الآية ١٣٧ .
(٤٧) ابو عمرو الداني ، التيسير في القراءات السبع ص ١٠٧ ، ابن الجزري ، النشر في القراءات العشر ص ٢٦٧ .
(٤٨) ينظر الكتاب ١/٨٩ ـ ٩٢ ، ٢/٣٤٧ ، والمقتضب ٤/٣٨٦ وشرح السيرافي على كتاب سيبويه ١/٣٨٣ .
(٤٩) البحر المحيط ٤/٢٣٠ .
(٥٠) الخصائص ٢/٣٩٠ .

العصور ، فقد حمل الزمخشري على هذه القراءة حملة شديدة ، ثم ادّعى أن الذي حمل ابن عامر على قراءته انه رأى في بعض المصاحف شركائهم مكتوباً بالياء (٥١) . ومعنى قوله انه كان لايرى القراءة سنّة متّبعة يأخذ بها الأول عن الآخر ، وانما هي بالرأي والهوى ، ويظهر ان كلام النحويين يوحي بعدم تسليمهم بتواتر القراءات السبع ، وقد صرح بهذا رضي الدين الاستراباذي (ت ٦٨٦ هـ) حيث قال (٥٢) : « قراءة ابن عامر ليست بذاك ، ولانسلم تواتر القراءات السبع » . وقال احمد بن حمدان النحوي (٥٣) (ت ٧٨٣ هـ) : « قراءة ابن عامر لاتجوز في العربية ، وهي زلّة عالم ، واذا زلّ العالم لم يجز اتباعه » .

اما الفراء الذي قال عنه عبدالقادر البغدادي (٥٤) (ت ١٠٩٢ هـ): « هو الذي فتح ابتداء القدح على قراءة ابن عامر » فقد قال : « وليس قول من قال (مُخْلِفَ وعْدَهُ رُسُلِهِ) ولا (زُيِّنَ لكثير من المشركين قتلُ اولادَهم شركائهم) بشيء (٥٥) . ورفض قول من جوّز هذه القراءة مستنداً الى شاهد نحوي بقوله : « وليس قول من قال : إنما ارادوا مثل قول الشاعر :

فزججتها متمكّناً زجّ القلوص أبي مزادة

---

(٥١) ينظر الكشاف ٤٣/٢ .
(٥٢) شرح الرضي على الكافية ٢٧١/١ .
(٥٣) تفسير القرطبي ٩٢/٧ . هو احمد بن حمدان بن احمد الأذرعي ، فقيه شافعي . ولد بأذرعات الشام وتفقه بالقاهرة وتوفي في حلب (الأعلام ١١٧/١) .
(٥٤) خزانة الأدب ٢٥٤/٢ .
(٥٥) معاني القرآن ٨١/٢ .

بشيء وهذا ماكان يقوله نحويو أهل الحجاز ، ولم نجد مثله في العربية (٥٦) . وقد خطأ ذلك وجعل صوابه : زج القلوص ابو مزادة (٥٧)

إن الفراء الكوفي وان كان قد شارك البصريين في تخطيء العرب والقراء لتأثره باصولهم الا أن جمهور الكوفيين لم يردّوا قراءة او يخطئوا قارئاً ، فقد قبلوا جميع القراءات سبعية كانت او غير سبعية واعتدّوا بها واتخذوا منها حجّة في قواعدهم النحوية .

لايحق لأي نحوي تخطيء أية قراءة لم توافق قياسه ، فالقارئ عندما يقرأ بقراءة مخالفة للقياس النحوي لم يأت بها من عند نفسه ، وإنما يتلقّاها تلقّياً وتلقيناً متصلاً سندها برسول الله عليه الصلاة والسلام ، فالقراءة سنّة متّبعة يأخذها الأول عن الآخر « وليس من شك في أن القراءات تمثل منهجاً في النقل لايصل الى وثاقته علم آخر مهما يكن حتى منهج حديث » (٥٨) وذلك لما اشتهر به القُرّاء من ضبط في التلقّي والعرض ، وعناية فائقة في الأداء ، فلم يكتفوا بالسماع طريقاً لأخذ القراءة فحسب وانما اشترطوا تلقّيها عن الشيوخ وعرضها عليهم ، وبذا يتمّ ضبطها على أحسن الوجوه واكملها ، فربّ سامع حرف لا يستطيع تأدية نطقه على الوجه الصحيح ولهذا قالوا : « إنّ التحديث بالقراءة يفيد ثبوتها ولايبيح القراءة بها ، بخلاف القراءة فانه يفيد الثبوت واباحة القراءة بها ، ولهذا نجدهم يجمعون بين التحديث والقراءة ، فيقول من تعرّض منهم لاثبات القراءة : حدّثني فلان بقراءته لفلان ، ثم يقول : وقرأت بها القرآن كلّه على فلان » (٥٩) . وفي

---

(٥٦) معاني القرآن ٣٥٨/٢ .
(٥٧) معاني القرآن ٨٢/٢ .
(٥٨) د. عبدة الراجحي ، اللهجات العربية في القراءات القرآنية ص ١ .
(٥٩) غيث النفع ص ٣١٥ .

هذا مافيه من حرص زائد على النقل الصحيح واحكام للضبط ما بعده من إحكام ، كما أن القراءات القرآنية مرآة صادقة لما كانت عليه ألسنة العرب قبل الاسلام ، فلا يستطيع اي باحث أن يتعرّض للهجات العربية دون الاستعانة بالقراءات ، يضاف الى ذلك أن أيّة قراءة جعلها النحاة خطأ وجد لها وجه سائغ في العربية ، وليس أدل على ذلك من قراءة نافع (معايش) بهمز الياء ، تلك القراءة التي مرّ بنا تخطيء النحويين من قرأ بها جوّزها آخرون ، فقد حكى ابو عمر الجرمي (ت ٢٢٥ هـ) – من البصريين – جوازها (٦٠) ، وجوّزها الفراء – من الكوفيين – ووجّهها عربيةً « بقوله وربما همزت العرب هذا وشبهه ، يتوهّمون انها فعيلة لشبهها بوزنها في اللفظ وعدد الحروف ، وقد همزت العرب المصائب وواحدتها مصيبة شبهت بفعيلة لكثرتها في الكلام » (٦١) . وقد ذكر ابن خالويه ان « من العرب من يهمز مالا يهمز تشبيهاً بما يهمز » (٦٢)ومما همزته العرب وليس أصله الهمز : قولهم استلأمت الحجر ، وانما هو من السِّلام ، وهي الحجارة ، وكان الاصل : استلمت . وقالوا : حلأت السويق ، وانما هو من الحلاوة ، وقالوا : لبأت بالحجّ وأصله : لبّيت (٦٣) . وقد فصّل ابن جني القول في هذا اذ قال : « من الهمز ماجاء من غير أصل له ولا ابدال دعا قياس اليه وهو كثير . منه قولهم : مصائب ، وهذا ممالا ينبغي همزه في وجه من القياس ، وذلك أن مصيبة مفعلة ، واصلها مصوبة ، فعينها كما ترى متحركة في الأصل فاذا احتيج الى حركتها في الجمع حصلت الحركة ، وقياسه مصاوب . . . ومثله قراءة اهل

(٦٠) ينظر ابو العلاء المعري ، رسالة الملائكة ص ١٧٥ .
(٦١) معاني القرآن ١/٣٧٣ – ٣٧٤ .
(٦٢) اعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم ص ٨٥ .
(٦٣) ابن السكيت ، اصلاح المنطق ص ١٥٧ – ١٥٨ .

المدينة : « معائش » بالهمز» (٦٣) .

وهكذا شأن القراءات الاخرى التي خطأ النحويون قارئيها ، فان نحن أنعمنا نظرنا فيها وجدناها لم تخرج عن كلام العرب في شيء ، لأن القُرّاء كانوا يتوخّون سلامة اللغة ويحرصون عليها كحرص النحاة بل أشدّ حرصاً ، ولهذا جاء القراءات السبع بل العشر – كما قال العلماء – ثابتة وموافقة قواعد العربية» (٦٤) . (وأدل دليل على صحة قولنا هو ما صنعه ابن خالويه إذ صنّف كتابه (الحجّة في القراءات السبع) وبيّن فيه حجّة قراءة كلّ قارئ خالف القياس في قراءته ، كما أظهر وجهها الصحيح في العربية ، ولهذا لانقرّ تخطئة النحويين للقُرّاء أولاً ، ثم ندعو الى اتخاذ القراءات الصحيحة مقياساً تقاس به قواعد النحو « فانّ صحة القياس على ماترد به القراءات الصحيحة مخالفاً لما اشتهر في كلام العرب زيادة في أساليب القول ، وفتحاً لطرق يزداد بها بيان اللغة سعة على سعته » (٦٥) .

تخطيء النحويين للشعراء

إذا كان النحويون قد خطأوا طائفة من العرب في كلامهم ، كما خطأوا القُرّاء في قراءاتهم المستندة الى السند المتين الصحيح والمشافهة والتلقين حين لم تتفق وتلك القواعد ، فمن الطبيعي ان تكون حملتهم على الشعراء أشدّ وأعتى ، ذلك أن الشاعر مقيّد بالوزن ومراعاة شروط القافية ، وهو في سبيل ذلك قد يأتي بما يخالف الكلام المألوف ، وقد بدت بوادر تلك الحملة على الشعراء بصورة مبكرة في تاريخ النحو . وربّما كان عبدالله بن أبي اسحاق الحضرمي أول نحوي فتح باب تخطيء العرب في لغتهم ، فسار على نهجه من جاء بعده من النحويين ، فقد كان من تصديه الكثير للفرزدق وملاحاته له ماجعل الشاعر

(٦٤) حمزة فتح‌الله ، المواهب الفتحية ٢/٨٧ .
(٦٥) عبدالوهاب حمودة ، القراءات واللهجات ص ١٤٩ .

يعاكسه ويأتي بأساليب مخالفة للشائع المألوف على طرفي نقيض ، من ذلك مثلاً قوله :

وعضُ زمانٍ يابن مروانَ لم يدع
من القوم إلا مسحتاً او مجلّفُ

فقد عطف مرفوعاً على منصوب ، وحينما سأله ابن ابي إسحاق : علام رفعت مجلّف ؟

قال الفرزدق : على مايسوؤك وينوؤك (٦٦) .

ولما اكثر الحضرمي من الرد على الفرزدق والتعنت له قال : « والله لأهجوّنك ببيت يكون (شاهداً) على ألسنة النحويين أبداً ، فهجاه الفرزدق بهذا البيت :

فلو كان عبدالله مولىً هجوتُهُ
ولكنّ عبد اللهِ مولى مواليا (٦٧)

فلم يلتفت ابن ابي اسحاق لهذا الهجاء المشين،وانما رمى الشاعر بمـــا كان قبيحاً عند العرب وهو اللحن،حيث كان عندهم من العيوب، بل من الذنوب، فقد ردّ على هجائه قائلاً : ولقد لحنت أيضاً في قولك : (مولى مواليا) وكان ينبغي أن تقول :

---

(٦٦) ابو البركات الانباري ، نزهة الألباء ص ١١ ــ ١٢ .

(٦٧) ابو الطيب اللغوي ، مراتب النحويين ص ١٢ ، أبو سعيد السيرافي ، اخبار النحويين البصريين ص ٢١ . وكان ابن ابي اسحاق مولى آل الحضرمي ، وهم حلفاء بني عبد شمس بن عبد مناف ، والحليف عند العرب مولى .

مولى موالٍ (٦٨) ولقد أصبح بيت الفرزدق – كما أراد – شاهداً نحوياً ، وهو من شواهد أقدم كتاب نحو وصل إلينا واعني به كتاب سيبويه ، حيث استشهد به سيبويه على اجراء (موالي) على الأصل ضرورة (٦٩) . كذلك استشهد به المبرّد على الغرض نفسه (٧٠) .

ثم تداوله النحويون بعد ذلك في كتبهم النحوية في باب الممنوع من الصرف .

وهكذا فتح الحضرمي باب تخطيء الشعراء والعرب في لغتهم ، وقد تأثر به تلميذه عيسى بن عمر الثقفي الى درجة انه تناول بعض الشعراء الجاهليين بالخطأ كالنابغة الذبياني ، وهو في الطبقة الاولى من فحول الشعراء الجاهليين إذ عدّه ابن سلاّم ثاني الفحول (٧١) ، وكان عيسى يقول : « أساء النابغة في قوله حيث يقول :

فَبِتُّ كأني ساورتْني ضئيلةٌ
من الرُقشِ في انيابِها السُمُّ ناقِعُ

ويقول : إن الصحيح أن يكون موضعها (ناقعاً) (٧٢) .

وهكذا صار تلحين الشعراء حتى الجاهليين منهم شيئاً يسيراً لكل نحوي يريد أن يبرز مهارته في صناعة الإعراب « فيتتبع مافي اشعار الجاهليين الأوائل من لحن وغلط وإحالة وفساد معنى ، حتى قال البردخت (٧٣) لبعض النحويين :

---

(٦٨) نزهة الألباء ص ١١ .
(٦٩) ينظر الكتاب ٥٨/٢ .
(٧٠) المقتضب ١٤٣/١ .
(٧١) ينظر ابن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ص ٤٣ .
(٧٢) طبقات فحول الشعراء ص ١٢ – ١٣ .
(٧٣) البردخت : معناه الفارغ بالفارسية ، وهو الشاعر علي بن خالد الضبي ، احد بني السيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة (الشعر والشعراء ٧١٦/٢) .

لقد كانَ في عينيكَ ياحفصُ شاغِلُ
وأنفٌ كمثلِ العُودِ مما تتبّعُ
تتبّعُ لحناً في كــلامِ مُرقّش
وخلقك مبنيٌ على اللحن أجمعُ
فعيــناكَ اقواءٌ وأنفكَ مكفــأ
ووجهُك إيطاء فأنتَ المرقعُ (٧٤)

ولم يكن لعيسى الحق في تلحين النابغة ، لأن الشاعر كان دقيق الحسّ بلغته ، كما كان يدرك أن (الإعراب) بهذه اللغة قد أعطى المتكلّم بها حقّ التقديم والتأخير ، فقوله (ناقع) صفة لضئيلة ، وقد اراد (ضئيلة ناقع في انيابها السم) ، ثم أخّر الصفة الى مكان القافية ، لأنها – وهي مرفوعة – لاتكون الا صفة موافقة لموصوفها اينما انتقل بها ترتيب الكلم المنظوم (٧٥) .

تمسك النحويون بصواب ماذهبوا اليه ، وتخطئة ماعداه ، ولو ورد له من الشواهد العربية ، بل لو كان المتكلّم عربياً يحتج بكلامه ، وقد خطّأ الاصمعي (ت ٢١٦ هـ) ابن قيس الرقيّات في ابيات من شعره منها : انه لم يصرف (مصعباً) في قوله :

ومصعبُ حيــن جــدّ الأ مــرُ اكثرُها وأطيبها (٧٦)

ومنها قوله في الندبة :

تبكيــهمُ اسماءُ مُعْــولةً وتقول ليلى : وارزيته (٧٧)

وكان يرى ان يقول : وارزيتاه ، كما تقول : واعمّاه وأخاه كما خطّأ الــكميت الاسدي بقوله :

(٧٤) القاضي علي الجرجاني ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٩ .
(٧٥) عباس العقاد ، اللغة الشاعرة ص ٢١ .
(٧٦) المرزباني ، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ص ١٨٦ .
(٧٧) ابو المحاسن اليغموري ، نور القبس ص ٣٤ .

أرعـــدْ وأبـــرقْ يـــايز يدُ فمـــا وعيدُك لي بضائرْ

وزعم ان البيت الذي يروى للمهلهل مصنوع محدث وذلك قوله :

أنبضوا معجسَ القسي وأرعد

نا كما تُبرق الفحولُ الفحولا

وبقي الأصمعي مصرّاً على رأيه ، على الرغم من ادعاء أبي زيد الانصاري (ت ٢١٥ هـ) انه سمعه من العرب الفصحاء ، وتأييد اعرابي بدوي فصيح من ابي بكر بن كلاب لأبي زيد فيما ذهب اليه ، وبيت آخر لرجل من بني كنانة :

إذا جاوزت من ذات عرق ثنيّة

فقل لأبي قابوس ماشئت فارعِدِ (٧٨)

اشتدت الخصومة بين علماء العربية من جهة وبين الشعراء من الجهة الآخرى ، فكان هؤلاء يستخدمون الهجاء وسيلة للدفاع والرد على تخطئ العلماء لهم ، والنحاة مستمرون بتخطيء الشعراء يصلحون الهجاء ويلحنونهم فيه ، كما مرّ بنا من تصحيح ابن ابي اسحاق هجاء الفرزدق له . وقد وقع ما يشبه هذا بعد حين بين الشاعر عبدالصمد بن المعذّل وبين المازني ، وكانَ ابن المعذل قد وجد من شيء كان أنكره المازني ،أو كلام تكلّم به فيه ، فقال يهجوه وأفحش في الهجاء ، وآخر الشعر قوله :

فاطوِ حَدِيثي دونهُ أن يبلُغَهْ

هممتُ أعـــلو رأســـه فأدمغَهْ

فبلغ ذلك المازني فلم يلتفت لهجائه وانما قال : « قولوا لهذا الجاهل : بمَ

(٧٨) ابو القاسم الزجاجي ، مجالس العلماء ص ١٤١ ــ ١٤٢ .

نصبت (فأدمغَه) ؟ لو لزمت مجالسه اهل العلم كان أعود عليك » . (٧٩)
وقد هجا عمّار الكلبي النحويين ، لأنهم عابوا عليه بيتاً من شعره ، فامتعض لذلك وقال :

ماذا لقينا من المستعربين ومن
قياس نحوهـــم هـــذا الذي ابتدعوا
إن قلتُ قافية بكراً يكون بها
بيت خلاف الذي قاسوه أو ذرعوا
قالوا لحنتَ ، وهذا ليس منتصباً
وذاك خفضٌ وهـــذا ليسَ يرتفـــعُ
كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم
وبيـــن قوم عـــلى إعرابهم طُبِـــعوا
ماكان قولي مشروحاً لكم فخذوا
ماتعرفون ، ومالم تعـــرفوا فدعوا (٨٠)

إن المتتبع لتاريخ النحو في القرن الثاني وما بعده يلاحظ أن الشعراء الإسلاميين امثال الفرزدق وذي الرمة والكميت والطرماح بن حكيم وابن قيس الرقيّات تعرّضوا الى نقد قسم من اللغويين والنحويين ، إذ لحنوهم ودعوا الى ترك الاستشهاد بشعرهم وعدم جعله حجة في النحو ، ولكن لو انصف النحويون لرأوا أن أدب هؤلاء الشعراء أدب عربي خالص يجري على ماجرى عليه الأدب العربي القديم في اغراضه وصوره واوزانه ، مع تطورات اقتضتها طبيعة الظروف ، وهم شعراء ، وما يقولونه شعراً يخضع لقيود الوزن وشروط

(٧٩) ينظر اخبار النحويين البصريين ص ٦٣ ــ ٦٥ والقفطي ، انباه الرواة ص ٣٢٩ .
(٨٠) الخصائص ١/٢٣٩ ــ ٢٤٠ ، انباه الرواة ٢/٤٢ ــ ٤٣ .

القافية ، ولهذا ابيح لهم انواع من الضرورات الشعرية لم تبح لهم في سعة الكلام ، والنحويون الكبار يعرفون هذا ، قال سيبويه : « يجوز في الشعرما لايجوز في الكلام » (٨١) ، فعندما يعترضهم الوزن تراهم يأتون – احياناً – بغير المألوف من الكلام في سبيل المحافظة على الوزن ومراعاة شروط القافية ، فليس لنحوي أو لغوي أن يخطئهم ويعدّهم جاهلين بأمور اللغة ، فقد عاشوا في زمن الفصاحة وهم فصحاء ، وشعرهم حجة في النحو واللغة ، فماذا يبتغي بعض النحويين من الشعراء اكثر من ذلك ، والشعر موطن الضرورات كما قلت آنفاً ؟ .

اسباب ظاهرة تخطيء العرب :

ان تخطئة النحويين للعرب في لغتهم ظاهرة واضحة في النحو وقد أدّت الى التضييق على اللغة والإخلال بقواعدها ، فما هي أسبابها وجذورها ؟

من هذه الأسباب ماذكرناه عن إفراط قسم كبير من النحويين في القياس والتعليل ، مما جعلهم لايهتمون بكل مايسمعونه الا اذا اتفق مع قواعدهم واصولهم ، ولهذا لجأوا الى التقدير والتأويل ليستقيم النص مع القاعدة ، واللغة – كما رأينا – لا تخضع دائماً للقياس ، لأن لها منطقها الخاص ، فلذا بقيت كثرة كاثرة من النصوص لم تخضع للقاعدة ولاتقبل تأويلا ولا تقديراً ، فلجأ النحويون الى تخطيء قائلها من العرب كما مرّ بنا ، ولهذا لا اوافق الاستاذ سعيد الافغاني في تحبيذه مافعله البصريون بقوله (٨٢) : « وهم الذين امعنوا في احوال الكلام العربي ، واستنبطوا علله ، وحكّموا فيها المنطق والعقل حتى جاءت قواعدهم في القياس والنحو الذي بني عليه متماسكة ومتناسقة في الجملة ، ولابد في كل تنسيق من تشذيب يخرج بعض النتوء من

(٨١) الكتاب ١/٨ .

(٨٢) من تاريخ النحو ٧٠ – ٧١ .

الهيكل المشذّب » وتابعه الدكتور شوقي ضيف بقوله (٨٣) : « توسعوا في القياس والتعليل ، إذ طلبوا لكل قاعدة علّة . ولم يكتفوا بالعلة التي هي وراء الحكم فقد التمسوا عللاً وراءها . وقانون القياس عام ، وظلاله مهيمنة على كلّ القواعد الى أقصى حد بحيث يصبح مايخرج عليها شاذاً ، وبحيث تفتح الأبواب على مصاريعها ليقاس على القاعدة مالم يسمع عن العرب ويحمل عليها حملاً ، فهي المعيار المحكم السديد » . أهذه طريقة صحيحة في دراسة النحو ؟ ايجوز لنا ان نضع قولاً لم تقله العرب محكمين القياس ، ونخطىء قولاً قالته العرب أو قراءة مشهوداً بصحتها سنداً وتأدية وندّعي ان هذه هي الدراسة الحقة في النحو ؟ .

ومن اسبابها أن استقراء اللغويين والنحويين للغة كان ناقصاً ، ولاسيما استقراء البصريين إذ حصروا سماعهم في قبائل معينة عدّوها فصيحة ، كقبيلة قيس وتميم واسد وهذيل وقريش . ومن أدلّة نقص استقرائهم — وهي كثيرة — ما روي عن ابي زيد الانصاري انه قال : « سمعت عمرو بن عبيد يقرأ : (فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولا جأن) فظننته قد لحن حتى سمعت العرب تقول : شأبة ودأبة» (٨٤) .

ومن ذلك ما نقله ابو اسحـــاق الشاطبـــي في شرح الخلاصة : أن امام العربية سيبويه يجعل من شواذ التعجب : (ما أمقتـــه !) و (ما أفقره !) بناء منه ان العرب لم يستعملوا الفعل الثلاثي من المقت والفقر . ثم ذكر الشاطبي : « أن جماعة من ائمة اللغة أثبتوا استعمال العرب للفعل الثلاثي من المقت والفقر ، وخفي ذلك على سيبويه ، وقال : ولا حجة في قول من خفي

(٨٣) المدارس النحوية ص ٢٠ .

(٨٤) ابن جني ، سر صناعة الاعراب ٨٢/١ .

عليه ماظهر لغيره ، بل الزيادة من الثقة مقبولة » (٨٥) .

ومن ذلك أيضاً ماقاله الكسائي في كتاب (ماتلحن فيه العوام) (٨٦) : « تقول : شكرت لك ، ونصحت لك ، ولايقال : شكرتك ونصحتك ، وقد نصح فلان لفلان وشكر له . هذا كلام العرب ــ قال الله تعالى : (واشكروا لي ولا تكفرون) (٨٧) (ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح اكم) (٨٨) . وقد عجبت كيف فات الكسائي ــ وهو احد القراء السبعة ــ قوله تعالى : (قال ربِّ أوزعني ان أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ) (٨٩) . وان الفعل شكر ونصح يتعديان بنفسيهما وبالحرف . جاء في اللسان (٩٠) : « شكره وشكر له يشكر شكراً وشكوراً وشكراناً . قال ابو نخيلة

شكرتك ، إنّ الشكر حبل من التقى
وما كل من أوليته نعمة يقضي

وحكى اللحياني : « شكرت الله وشكرت لله . وجاء فيه : « النصح : نقيض الغش مشتق منه . نصحه وله نصحاً ونصيحة . . . وهو باللام أفصح » (٩١) ومن ذلك ايضاً نص في (الكتاب) (٩٢) اشار اليه الدكتور محمد عبدالخالق عضيمة (٩٣) يمنع الخليل بمقتضاه وقوع (كل) المضافة الى النكرة مفعولاً به . قال : « أكلت شاة كلّ شاة حسن ، وأكلت كل شاة

(٨٥) محمد الخضر حسين ، القياس في اللغة العربية ص ٧٢ ــ ٧٣ .
(٨٦) ص ٢٥ .
(٨٧) سورة البقرة من الآية ١٢٥ .
(٨٨) سورة هود من الآية ٣٤ .
(٨٩) سورة النحل من الآية ١٩ والاحقاف من الآية ١٥ .
(٩٠) ٤/٤٢٣ (شكر) .
(٩١) لسان العرب ٢/٦١٥ (نصح) .
(٩٢) الكتاب ١/٢٧٤ .
(٩٣) و (٩٤) فهارس كتاب سيبويه ص ١٩ ــ ٢٠ .

ضعيف ، لأنهم لايعمّون هكذا فيما زعم الخليل »ولست ادري كيف فات على الخليل وسيبويه ذلك ، ألم يطلعا على القرآن الكريم ويستقريا آياته ؟ فان مامنعاه قد جاء كثيراً في كلام العرب وفي القرآن جاء (كل) المضافة للنكرة مفعولاً به في ستة وعشرين موضعاً كما ذكر الدكتور عضيمة (٩٤) وفي سورة الانعام وحدها هذه المواضع : (وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها) (٩٥) و (وسع ربي كلّ شيء علماً) (٩٦) و (حشرنا عليهم كلّ شيء قُبُلاً) (٩٧) و (خلق كلّ شيء) (٩٨) و (على الذين هادوا حرمّنا كل ذي ظفرٍ) (٩٩) .

وكان تشددهم في السماع وتضييقهم من رقعة مناطقه سبب نقص استقرائهم وقد دفعهم الى ذلك غيرتهم على اللغة وحبهم الجم لها ، ورغبتهم في أن تسير على سنن مستقيمة لاتحيد عنها ، فانصبّ (اهتمامهم على الفصيح الذي حددوه بالكثير الشائع على الألسنة ، فكان أن منعوا تعبيرات فصيحة وأساليب صحيحة ظنّوها لحناً أو غير فصيحة فأنكروا صدورها من العرب لأنهم لم يطّلعوا عليها في سماعهم ، وكان منهم من ينكر هذا التسرّع الى رمي العربي بالخطأ اذا ورد عنه مخالفاً لما عليه الجمهور ، يقول ابن جني (١٠٠) : « اذا اتفق شيء من ذلك نظر في حال ذلك العربي ، وفيما جاء به ، فان كان فصيحاً في جميع ماعدا ذلك القدر الذي انفرد به وكان ماأورده مما يقبله القياس ، إلا أنه لم يرد به استعمال إلا من جهة ذلك الانسان فان الاولى في ذلك أن يحسن الظن به ولا يحمل على فساده . فان قيل : فمن اين ذلك له وليس مسوغاً أن

(٩٥ ــ ٩٦ ــ ٩٧ ــ ٩٨ ــ ٩٩) سورة الانعام الآيات ٢٥ و ٨٠ و ١١١ و ١٠١ و ١٤٦ . على التوالي .

(١٠٠) الخصائص ١/٣٨٥ ــ ٣٨٦ .

يرتجل لغة لنفسه ؟ قيل : قد يمكن ان يكون ذلك وقع اليه من لغة قديمة قد طال عهدها وعفا رسمها وتأبدت معالمها » .

اما الكوفيون فقد وسّعوا من رقعة سماعهم ولم يضيّقوا على العربية ، فقد سمع أئمتهم من المناطق التي سمع منها البصريون كما سمعوا من مناطق اخرى لم يسمع منها البصريون اذ لم يعدوا أهلها حجة في كلامهم ، ولم يعتدّوا بفصاحة أهلها . فقد اهتم الكوفيون بالسماع كثيراً ، فهم اكثر احتراماً لما ورد عن العرب ، ولذا « كانوا أقرب الى الانصاف العلمي التاريخي ، اذ كانوا يرون ان العرب اولى وأحق بلغتهم ، فلهم أن يسلكوا في التعبير ماتهيأ لهم من وسائل ، وأن يكيّفوا لهجاتهم طبقاً لما تقضي به نواميس الاختلاف القبلي ومايتبعه من عوامل مادية ومعنوية تختلف بسببها ألسنتهم ، وعلى اللغويين ان يسجلوا ذلك ويجمعوه اذا حرصوا على التعرف الى العربية المطلقة ، كما أنّ على النحويين أن يتبعوا ذلك كله ويحصوه بضوابطهم ومقاييسهم (١٠١) ولذلك لم نسمع عنهم تخطيء العرب في لغتهم الا ماكان من الفرّاء فانه شارك البصريين بتخطيء العرب والقراء ، وهذا لايؤثر في الخط العام الذي سار عليه جمهور الكوفيين في دراساتهم النحوية .

ومن اسباب ظاهرة تخطيء العرب أيضاً توخّي بعض العلماء البصريين الأفصح من اللغات والغاء ماسواها كما كان الأصمعي يفعل . من ذلك مثلاً إنكاره ان يقال (زوجتي) وانما يقال (زوجي) مستشهداً بقوله تعالى : (أمسك عليك زوجك) (١٠٢) ، ولم يعتد بقول ذي الرمّة :

---

(١٠١) في اللهجات العربية واصول اختلافها ، د. عبدالحليم النجار بحث نشر في مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ، المجلد ١٥ ج ١ سنة ١٩٥٣م ص ٤٨ .

(١٠٢) سورة الاحزاب من الآية ٣٧ .

أذو زوجة في المصرِ ام ذو خصومةٍ
أراكَ لها بالبصرة اليوم ثاويا

لأن الأصمعي لايعد ذا الرمّة حجة في اللغة والنحو ، لتحضّره – كما يزعم – ولما قرىء عليه شعر لعبدة بن الطبيب وهو من الشعراء المحتج بشعرهم :

فبكى بناتي شجوهنّ وزوجتي
والطامعون إليّ ثمّ تصدّعوا

لم ينكره ؛ ولكنه أصرّ على قوله (١٠٣) . وقول الفراء يؤيد ماذهبنا اليه من توخّي بعض العلماء البصريين الأفصح من اللغات وترك ما سواها وتخطىء قائليها ، بقوله : « الزوج يقع على المرأة والرجل ، هذا قول اهل الحجاز . قال الله تعالى : (امسك عليك زوجك) .

واهل نجد يقولون : (زوجة ، وهو اكثر من زوج ، والأول أفصح عند العلماء) (١٠٤) .

وقد ردّ صاحب التنبيهات (١٠٥) على تخطىء الأصمعي قول من قال (زوجة) بأن فصحاء العرب يقولون زوج وزوجة ، فممن قال ذلك : الشمّاخ والعجّاج والفرزدق وذو الرمّة وذكر شاهداً لكل منهم ، وقال : انشد ابو عمرو :

(وزوجة كثيرة السيّات)

قلت : والصحيح انهما لغتان و (زوج) أفصح لأنها لغة القرآن الكريم ، وهذا مادفع الأصمعي الى الأخذ بها وتغليط ماسواها وعدم قبولها حتى لو صدرت من الفصحاء .

---

(١٠٣) ينظر الخصائص ٢٩٥/٣ .
(١٠٤) الفراء ، المذكر والمؤنث ص ٢٦ .
(١٠٥) علي بن حمزة البصري ، كتاب التنبيهات على اغاليط الرواة ص ٢٠٥ – ٢٠٦ .

وربما كان من أسباب ظاهرة تخطىء العرب نزعة حقد عليهم ، فقد ذكر ابن سلاّم عن يونس ان ابن ابي اسحاق وعيسى بن عمر كانا يطعنان على العرب (١٠٦) . ورائحة الحقد تشمّ مما رواه الأصمعي عن عثمان البتيّ النحوي وكان يسمى عثمان العربي لفصاحته ، فسمعه ابن ابي اسحق ينشد :

كورهاء مشني اليها حليلها

فقال : اخطأ عربيكم ، وانما هو مشنوء (١٠٧) ، ويظهر انه « كان مولعاً ، لكونه من الموالي ، بالعثور على شيء في لغة البدويين يتناوله بالنقد والتصحيح » (١٠٨) ، والا فهي لغتان : « حكى علي بن حازم اللحياني (ت ٢٢٠ هـ) : رجل مشني ومشنو أي مبغض لغة في مشنوء ، وانشد :

ألا ياغرابَ البينِ ممَّ تصيحُ
فصوتُكَ مَشْنُوٌّ اليَّ قبيحُ (١٠٩)

وربّ سائل يسأل : هل كان ائمة العربية الذين خطأوا العرب يراعون القواعد التي وضعوها ولا يلحنون ؟ جوابه فيما روي عن ابن ابي اسحاق انه كان يلحن (١١٠) ، وكان الفرّاء يلحن اذا رجع الى الطبع ولم يتحفظ (١١١) . وان نظرة واحدة الى اساليبهم تلقى الضوء على أنهم خالفوا ماقرروه . من

(١٠٦) اخبار النحويين البصريين ص ٢٢ ، نزهة الالباء ص ١١ .
(١٠٧) ابو احمد العسكري ، شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ١/٩٠ .
(١٠٨) يوهان فك ، العربية ص ٤٧ .
(١٠٩) لسان العرب ١٤/٤٤٤ (شنا) .
(١١٠) ينظر ابو بكر الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ص ٤٢ .
(١١١) ينظر المصدر نفسه ص ١٤٣ .

ذلك مثلاً قول ابن جني (١١٢) : « إن القياس مقتضٍ لصحة لغة الكافة، وقد خالف القاعدة ، وهو من أئمة العربية البارزين . قال عبداللطيف البغدادي (١١٣) (ت ٦٢٩ هـ) : « تقول جاءني غيرك ولا تدخل عليه الألف واللام ، ومنه حضر الناس كافة ولاتقل الكافة » . وقال ابو البركات الانباري (١١٤) : « فأما الخمسة أمثلة فمنهم من ذهب . . . » . وهـــذا التعبير غير جائز عند النحويين جميعاً ، والصواب ان يقال : فأما خمسة الأمثلة . ومثل ذلك كثير .

أرأيت كيف خالفوا قواعدهم وأصولهم التي وضعوها هم أنفسهم فيما عابوا به غيرهم من العرب ؟ وربّما يبرّر سلوكهم هذا ما ذكره ابن خلدون (١١٥) من « أنّ ملكة اللسانغير صناعة العربية » ثم بيّن السبب : « بأن صناعة العربية إنمـــا هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة ، فهو علم بكيفية ، وانما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علماً ولا يحكمها عملا » ، يؤيد هذا ماروي عن ابن خالويه انه قال له رجل يوماً : « اريد ان أتعلـــم من العربية ما أقيم به لساني ، فقال له ابن خالويه : أنا منذ خمسين سنة اعلم النحو ما تعلّمت ما أقيم به لساني » (١١٦) .

وخلاصة القول : إن ائمة العربية لم يلتزموا بالترتيب الطبيعي الذي يقتضيه البحث العلمي من حيث النظر والمشاهدة والملاحظة ، ثم استنتاج القواعد من الأساليب المستعملة فعلاً ، فلم ينظروا الى ان اللغة ظاهرة اجتماعية ، ولكنهم أفرطوا في تطبيق المنهج الفلسفي والمنطقي الذي يهتم بتقسيمات

(١١٢) الخصائص ٢/١٤ .
(١١٣) ذيل فصيح ثعلب ص ١١٤ .
(١١٤) الانصاف ١/٣٩ .
(١١٥) مقدمة ابن خلدون ص ٥٦٠ .
(١١٦) بغية الوعاة ٥/٥٢٩ .

منطقية نظرية لها كثير من الفروع .

ولهذا جاءت قواعدهم ضيّقة لم تستوعب كلام العرب كلّه ، فلجأ النحاة الى شتى الطرق لكي يردّوا ماخرج عن القاعدة اليها كالتأويل والحذف والتقدير والحمل على الشذوذ والحمل على الضرورة ان كان النص شعراً ، وان لم يخضع النص للقاعدة بعد كل هذه المحاولاة يرفض ، ويُخَطَّأ قائله ، ولو كان عربياً فصيحاً من عليا تميم وسفلى قيس ، او في الذؤابة من قريش . وهذا ليس من الدراسة الصحيحة للغة في شيء : فالنحو في حاجة الى اصلاح ، وسبيل ذلك ان ننحو به نحو كلام العرب ونحو اساليبهم وخير كلام العرب وأفصحه وأبينه واوضحه كتاب الله الموثوق به كل الثقة (لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـــه) فنتخذه المصدر الاول في دراساتنا النحوية ، ثم قراءاته الصحيحة وحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام وكلام العرب النثري وشعرهم القديم الخالي من الضرورة ، فمتى تكون لدينا الجرأة في الاقدام على تحرير النحو من جموده ، فنعيد اليه نضارته ونجعله وسيلة فعالة في خدمة اللغة ومتكلميها ؟ والله يهدي الى أهدى السبل واقومها . وآخر دعواي أنِ الحمدُ لله ربّ العالمين .

* * *

الفهرست

الصفحة

اللواء الركن محمود شيت خطاب

ابو موسى الاشعري ٣

الدكتور نوري حمودي القيسي

مضرس بن ربعي الاسدي ٥٣

الاستاذ ميخائيل عـواد

مصطلحات حضارية في التراث العربي..... ٩١

الدكتور محمد جابر فياض

الكنايـــة ١١٩

الدكتور حاتم صالح الضامن (تحقيق)

كتاب الفرق (لابي حاتم السجستاني) ٢٠٦

الدكتور حسام سعيد النعيمي

التحول والثبات في اصوات العربية..... ٢٦١

الدكتور عبدالجبار علوان النايلة

ظاهرة تخطئة النحويين للفصحاء والقراء..... ٣٠٣

مجلـــة
المجمع العلمـي العراقي

انشئت سنة ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م

تصدر اربعة اجزاء في السنة

سعر النسخة دينار ونصف
وتضاف اليها اجرة البريـد

★ ★ ★

توجه الرسائل والبحوث الى الامين العام للمجمع

- البحوث والمصطلحات التي ينشرها الكتاب في هذه المجلة تعبر عن آرائهم الشخصية .
- البحوث والمقالات التي لا تنشر ، لا ترد الى اصحابها .

(العنوان : بغداد / الوزيرية / ص.ب. ٤٠٢٣)

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغـداد ١٦٧٦ لسـنة ١٩٨٦

مطبعة المجمع العلمي العراقي ٣٠٠٠ / ١٩٨٦

JOURNAL
of the
IRAQ ACADEMY

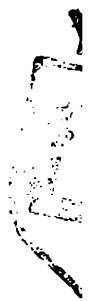

VOLUME 37

Part (1)

PUBLISHED BY

THE IRAQ ACADEMY

BAGHDAD

1 9 8 6